مقالات من أرشيف مجلّة المشرق

السَّنة السَّادسة والعشرون، العدد٧ تمّوز ١٩٢٨

الجاحظ (٧٧٥؟ـ ٨٦٩)

المفكر والكاتب

بقلم فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في كلّية القديس يوسف

« كتب الجاحظ تعلّم العقل أوّلًا ، والادب ثانياً ! »
(ابن العميد)

١

إمام الادباء ، وحجّة المفكرين ، في العصر العباسي الثاني . عاش مستقلًّا في مآتيه واعماله ، واختطّ لنفسه مذهباً خاصًّا في علم الكلام عُرف به ، وجرى في الكتابة على اسلوب جديد انفرد بهِ عن غيره . فهو في حياته رجل شخصي ، وفي آرائه مفكر شخصي ، وفي انشائه اديب شخصي.

اما شخصية الرجل فلا يعنينا منها اليوم الّا ذاك الاستقلال الـذي رافق الجاحظ في حياته الطويلة ، وبلاياه العديدة ، فجعله يستقبل المحاسن والمساوئ بثبات متساوٍ ، وازدراء بليغ، مع مسحة من التهكم على كل شيء ، امتزجت بعقليته فرفعته الى مقام امرّ الادباء اذعاً في انتقاداتهم ، وافكههم حديثـاً ، واظرفهم نكتة.(١) اما شخصية المفكر ، وشخصية الكاتب ، فهما ما نحن دارسون :

المفكر

مؤلفاته

قبل ان نبحث في آراء الجاحظ، وطرق تفكيره ، يجدر بنا ان نلقي نظرة على كتبه المطبوعة وغير المطبوعة ، المعروفة في عصرنا وغير المعروفة ، الثابتة له وما نُسب اليه خطأً او ترجيحاً . ونحن نبدأ بالمطبوعة :

---

١) من شاء الاطلاع على حياة الجاحظ واخلاقه بالتفصيل ، فليراجع ما كتبناه في مقدمة الجزء الثامن عشر من الروائع (الجاحظ : كتاب الحيوان : ١ – المقدّمة)

ا — كتاب الحيوان

في اخلاق الحيوانات الظاهرة ، وعلاقاتها مع الإنسان ، اكثر منه في التاريخ الطبيعي . اورد فيه ما يُنسب الى ارسطو عن الحيوانات ، ثم ما ذكره المدائني من الامثال المضروبة بها ، وما ورد عنها في الشعر العربي ، والقرآن ، والحديث . — وهو سبعة مجلدات ، طُبع في مصر ، ١٣٢٣-١٣٢٥ (١٩٠٥-١٩٠٧) . وقد اخترنا منه منتخبات ستصدر في الروائع (الاجزاء ١٨ ، ١٩ ، ٢٠)

ب — كتاب البيان والتبيين (ويُقال : التبيُّن)

في الادب ، والانشاء ، والبيان ، والخطابة والخطباء مع امثلة من خطب النبي والخلفاء . وفي السجع والتنميق ، والشعر والشعراء ، والنسّاك والزهّاد . وفي اللحن واللحّانين ، والاحاديث والنوادر . وقد اهداه الجاحظ الى ابن ابي دؤاد . وهو في مجلّدين . طُبع طبعةً اولى في مصر سنة ١٣١١ — ١٣١٣ هـ . (١٨٩٣ — ١٨٩٥) وشرح بعض الفاظه حسن افندي الفاكهاني . وقد طُبع مؤخرًا طبعةً جديدة في مصر ايضًا

منتخبات البيان والتبيين — فصول مختارة من الكتاب السابق — طبعت ، مع اربع رسائل لغير الجاحظ ، في مطبعة « الجوائب » ، القسطنطينية سنة ١٣٠١ هـ . (١٨٨٣)

ج — كتاب البخلاء

درس اخلاقي انتقادي . طبعه المستشرق ڤان ڤلوتن (Van Vloten) في ليدن سنة ١٩٠٠

د — سلوة الحريف في المناظرة بين الربيع والخريف

طُبعت في مطبعة « الجوائب » ، القسطنطينية سنة ١٣٠٢ (١٨٨٤)

هـ - مناقب الترك

طُبعت في مصر ، في مطبعة جريدة « مصباح الشرق » سنة ١٨٩٨ ، ثم في ليدن

و — ثلاث رسائل : مناقب الترك ، فخر السودان على البيضان ، التربيع والتدوير

طُبعت في ليدن بعناية المستشرق ڤان ڤلوتن (Van Vloten) سنة ١٩٠٣

ز — احدى عشرة رسالة : الحاسد والمحسود ، مناقب الترك ، فخر السودان على البيضان ، التربيع والتدوير ، تفضيل النطق على الصمت ، مدح التجّار وذمّ عمل السلطان ، العشق والنساء ، الوكلاء ، استنجاز الوعد ، بيان مذاهب الشيعة ، طبقات المغنين

طُبعت في مصر سنة ١٣٢٤ هـ . (١٩٠٦)

ح – ثلاث رسائل : الردّ على النصارى ، ذمّ اخلاق الكتّاب ، القيان

طُبعت في مصر بعناية يوشع فِنكَل (Finkel) سنة ١٣٤٤ هـ. (١٩٢٦)

ط – فصول مختارة من كتب الجاحظ

طُبعت على هامش الجزء الثاني من كتاب «الكامل» للمبرّد ، في مصر ، سنة ١٣٢٤ هـ. (١٩٠٦)

اما ما طُبع منسوباً الى الجاحظ ، ولم يثبت فهو:

ا – كتاب المحاسن والاضداد

طبعه المستشرق فان ڤلوتن (Van Vloten) في ليدن سنة ١٨٩٨ . ثم طبعه في مصر محمد امين الخانجي سنة ١٣٢٤ هـ. (١٩٠٦)

ب – كتاب التاج

في اخلاق الملوك . طبعه احمد زكي باشا في مصر سنة ١٩١٤

ج – كتاب تهذيب الاخلاق

طبعه محمد كرد علي في دمشق سنة ١٩٢٤

د – كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير

طبعه محمد راغب الطباخ الحلبي في حلب سنة ١٩٢٨

ونحن نذكر الآن ما ذُكر في ثبت مؤلفات الجاحظ ، ولم يُطبع على ما نعلم ، نأخذ ذلك عن الجاحظ نفسه في مقدّمة كتاب الحيوان ، وعن ياقوت في معجم الادباء :

كتاب النبي والمتنبي . كتاب المعرفة . كتاب جوابات كتاب المعرفة . كتاب مسائل كتاب كتاب المعرفة . كتاب الردّ على اصحاب الإلهام . كتاب نظم القرآن (ثلاث نسخ) . كتاب مسائل القرآن . كتاب فضيلة المعتزلة . كتاب الردّ على المشبّهة . كتاب الإمامة على مذهب الشيعة . كتاب حكاية قول اصناف الزيديّة . كتاب العثمانية . كتاب الردّ على العثمانية . كتاب الاخبار وكيف تصحّ . كتاب عصام المريد . كتاب إمامة معاوية . كتاب إمامة بني العبّاس . كتاب الفتيان . كتاب القوّاد . كتاب اللصوص . كتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة . كتاب صياغة الكلام . كتاب المخاطبات في التوحيد . كتاب تصويب علي في تحكيم الحَكَمَين . كتاب وجوب الإمامة . كتاب الاصنام . كتاب الشارب والمشروب . كتاب افتخار الشتاء والصيف . كتاب المعلّمين . كتاب الجواري . كتاب نوادر الحسن . كتاب الفخر ما بين عبد

شمس ومخزوم . كتاب المرجان والبرصان . كتاب فخر القحطانية والعدنانية . كتاب الطفيليين . كتاب الفتيا . كتاب الردّ على اليهود . كتاب الصرحاء والهجناء . كتاب المعاد والمعاش . كتاب التسوية بين العرب والعجم . كتاب السلطان واخلاق اهله . كتاب الوعيد . كتاب البلدان . كتاب الاخبار . كتاب الدلالة على ان الإمامة فرض . كتاب الاستطاعة وخلق الافعال . كتاب الهدايا (منحول) . كتاب الاخوان . كتاب الردّ على من ألحد في كتاب الله عزّ وجلّ . كتاب آي القرآن . كتاب الناشئ والمتلاشي . كتاب حانوت عطار كتاب التمثيل . كتاب فضل العلم . كتاب المزاح والجدّ . كتاب جمهرة الملوك . كتاب الصوالجة . كتاب ذمّ الزنا . كتاب التفكّر والاعتبار . كتاب الحجر والنبوّة . كتاب آل ابراهيم بن المدبّر في المكاتبة . كتاب احالة القدرة على الظلم . كتاب امهات الأولاد . كتاب الاعتزال وفضله عن الفضيلة . كتاب الاخطار والمراتب والصناعات . كتاب احدوثة العالم . كتاب الردّ على من زعم ان الإنسان جزءٌ لا يتجزّأ . كتاب ابي النجم وجوابه . كتاب التفاّح . كتاب الانس والسلوة . كتاب الكبر المستحسن والمستقبح . كتاب نقض الطب . كتاب الحزم والعزم . كتاب عناصر الآداب . كتاب تحصين الأموال . كتاب الامثال . كتاب فضل الفرس . كتاب علي الهملاج . كتاب الرسالة الى ابي الفرج بن نجاح في امتحان عقول الاولياء . كتاب رسالة ابي النجم في الخراج . كتاب رسالته في القلم . كتاب رسالته في اثم السكر . كتاب رسالته في الأمل والمأمول . كتاب رسالته في الحلية . كتاب رسالته في ذمّ الكتّاب . كتاب رسالته في مدح الكتّاب . كتاب رسالته في مدح الورّاق . كتاب رسالته في ذمّ الورّاق . كتاب رسالته في من يسمّى من الشعراء عمرًا . كتاب رسالته اليتيمة . كتاب رسالته في فرط جهل يعقوب بن اسحق الكندي . كتاب رسالته في الكرم الى ابي الفرج بن نجاح . كتاب رسالته في موت ابي حرب الصفّار البصري . كتاب رسالته في الميراث . كتاب في الأسد والذئب . كتاب رسالته في كتاب الكيمياء . كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب . كتاب رسالته في القضاة والولاة . كتاب الملوك والامم السالفة والباقية . كتاب رسالته في الردّ على القوليّة . كتاب العالم والجاهل . كتاب النرد والشطرنج . كتاب غش الصناعات . كتاب خصومة الحول والعور . كتاب ذوي العاهات . كتاب المغنّين . كتاب اخلاق الشطّار

آراؤه

في الفلسفة وعلم الكلام : «الجاحظيّة»

نعلم ان الجاحظ كان تلميذ النظّام . ومن ذكر النظّام ذكر إمام المفكّرين وشيخ المعتزلين ، في ذاك العصر . يدرس ويدرّس ، فينمو المذهب المنتسب اليه وينتشر ، مستفيدًا من تلك الحريّة الفكريّة التي ميّزت خلافة المأمون . وكانت آراء

المعتزلة قد تجاوزت آراء موسسها واصل بن عطاء (†٧٩٧) فدرس أئمتها، وفي اولهم النظّام، كتبَ الفلاسفة اليونانيين ولاسيما الطبيعيين منهم كارسطو وتلامذته. واخذوا يطبّقون تلك المبادئ على عقلياتهم، فحكّموا العقل في الوحي، وعرضوا العقائد الدينية على القواعد المنطقية، ورفضوا ما فاق منها العقل البشري. فتوصّلوا الى انكار الآيات والعجائب، والى ان الانسان حرٌّ خالق لأعماله، وتجاسروا فقالوا ان القرآن مخلوق

هذه كانت آراء المعتزلة اذ تبع الجاحظ استاذه النظّام في دروسه، فعكف هو ايضاً على تفهّم فلسفة اليونان. على انه لم يلبث ان شعر بجفاف تلك الاستنتاجات المنطقية، فلجأ الى تطبيق مبادئه على التاريخ، والاستعانة بالاختبار في شرح غوامض المسائل. وكان له من آرائه الشخصية دافع عن بعض مقرّرات المعتزلين، فانفرد عنهم وأسّس مذهباً جديداً في الفلسفة اللاهوتية، او علم الكلام، عُرف «بالجاحظيّة»

وكنا نودّ لو وصلنا كتاب خاصّ للجاحظ في هذا المذهب ومبادئه وآرائه. ولكن هذا التمنّي لم يتحقق اولاً لأنه لم يصلنا شيء في ذلك؛ ثانياً، ونظن هذا السبب الاقوى، لان الجاحظ لم يكن من الجلَد على جانبٍ كافٍ بحيث يُتعب ذهنه في تنسيق كتاب فلسفي وتبويبه بطريقة منطقية؛ ونحن نعرف اسلوب الجاحظ في الكتابة، وعبثه الدائم بالترتيب والتقسيم. على اننا لم نعدم من اختصارات لمبادئ الجاحظية اوردها الشهرستاني في الملل والنحل، (١ والبغدادي في «الفرق بين الفِرَق»؛ (٢ ونحن نوردها عنهما، شارحين ما يلزم شرحه:

١ — المعارف كلها ضرورية طبيعية وليست باختيار العباد، اي لا حرّية لهم فيها

٢ — ليس للعباد كسب سوى الإرادة، التي هي جنسٌ من الأعراض. اما الافعال فانها جبريّة يأتيها العباد طبيعةً

والجاحظ يوافق ثمامة بن أشرس في هذا الرأي وقد علّق البغدادي على هذا الزعم بقوله: ان كان «لا فعل للإنسان الّا الارادة، لزمه ان لا يكون الانسان مصلياً ولا صائماً ولا حاجّاً ولا زانياً ولا سارقاً ولا فاذفاً ولا قاتلاً. لانه لم يفعل عنده (اي عند الجاحظ) صلاةً ولا صوماً ولا حجاً ولا زنىً ولا سرقةً ولا قتلاً ولا

١) الشهرستاني: كتاب الملل والنحل — ليپسيك ١٩٢٣ — ص: ٥٢ — ٥٣

٢) البغدادي: الفَرق بين الفرق — مصر — ص: ١٦٠ — ١٦٣

قذفاً . لان هذه الأفعال عنده غير الإرادة واذا كانت هذه الافعال التي ذكرناها عنده طباعاً لا كسباً ، لزمه ان لا يكون الإنسان عليها ثواب ولا عقاب ، لأن الإنسان لا يثاب ولا يُعاقب على ما لا يكون كسباً له . كما لا يُثاب ولا يُعاقب على لونه وتركيب بدنه ، اذ لم يكن ذلك من كسبه . » (١

على اني اخال البغدادي لم يتتبع رأي الجاحظ حتى منتهاه ، فيفهم ما يريد «بالارادة» ؛ وهي ، عنده ، نوع من المعرفة . فاذا عرف الفاعل عمله كان مريداً له . ومن ثمَّ لم يبقَ فرق ، من حيث التبعة ، بين العمل والارادة . وهذا قول الجاحظ :

٣ – اذا انتفى السهو عن الفاعل ، وكان عالماً بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق . واما الإرادة المتعلّقة بفعل الغير فهي ميل النفس اليه

٤ – الطبائع ثابتة للأجسام ولها افعال مخصوصة بها

يوافق الجاحظ هنا الطبيعيين من الفلاسفة ، ويجعل للأجسام ميولاً طبيعية ناتجة عن قوتها الداخلية

٥ – الجواهر وحدها خالدة لا يجوز ان تفنى . اما الاعراض فتتبدّل

وبهذا التبدّل الحادث في الأعراض يمكن الانسان ان يشرح تنقّلات الأجسام والأرواح بسبب ما في مادّة الجواهر الخالدة من القوّة الغريزية . ولهذا رأى المستشرق كارا دي ڤو أن من يعتقد بهذا المذهب ويتتبع نتائجه ينتهي الى مذهب ليبنز المعروف «بالوَحدات» (Monadologie) (٢ . اما السنيّون فيردّون على زعم الجاحظ هذا بأن رأيه يوجب القول بأن الله سبحانه يقدر على خلق شيء ولا يقدر على افنائه

٦ – اهل النار لا يخلدون في العذاب فيها ، بل يصيرون الى طبيعتها

فهم خالدون فيها من جهة الإقامة ، غير خالدين من جهة العذاب

٧ – الله لا يُدخل احداً في النار ، بل ان النار تجذب اهلها

٨ – اما في ما يختصّ بالله وصفاته فان مذهب الجاحظ كمذهب الفلاسفة في نفي الصفات ، وفي اثبات القدر ، خيره وشرّه . وحكى الكعبي انه قال بوصف الباري تعالى بانه مُريد بمعنى انه لا يصحّ عليه السهو في افعاله (٣ ولا الجهل ، ولا يجوز ان يُغلب ويُقهر

٩ – الخلق كلهم من العقلاء عالمون بان الله خالقهم ، وعارفون بانهم محتاجون الى

١) البغدادي : الكتاب المذكور ، ص : ١٦٠ - ١٦١

٢) B^on Carra de Vaux : Avicenne, Paris, 1900. p. 32

٣) راجع ما يفهم الجاحظ بلفظة « مُريد » ، قبيل هذا ، في الآراء : ٢ ، ٣

النبي، وهم محجوجون بمعرفتهم . ثم هم صنفان : عالم بالتوحيد، وجاهل به . فالجاهل معذور، والعالم محجوج

ومن انتحل دين الإسلام، فان اعتقد ان الله تعالى ليس بجسم ولا صورة، ولا يُرى بالابصار، وهو عدل لا يجور، ولا يريد المعاصي؛ وبعد الاعتقاد والتبيين اقرّ بذلك كلّه، فهو مسلم حقاً . وان عرف ذلك كله، ثم جحده وانكره، او دان بالتشبيه والجبر، فهو مُشرك كافر حقاً . وان لم ينظر في شيء من ذلك، واعتقد ان الله ربّه، وان محمداً رسول الله، فهو من لا لوم عليه، ولا تكليف عليه غير ذلك .

١٠ — خَلق القرآن

هي مسألة كلامية شغلت علماء الإسلام مدة القرون الطوال، واشتدّ الجدال فيها في هذا العصر خاصّة فقال المعتزلون ومن تبعهم ان القرآن مخلوق، وخالفهم السنيّون في ذلك قائلين انه موجود منذ البدء . الى ان صرّح الخليفة المأمون رسمياً، سنة ٨٢٧، بأن القرآن مخلوق . الّا ان فوز المعتزلة هذا لم يدم الّا ٢٤ سنة، فقام المتوكل واضطهدهم وقرّر ان القرآن غير مخلوق؛ وهو الرأي السنّي الشائع . اما الجاحظ فكان يقول بخلقه . وما كنا لنطيل الكلام في هذا الامر، لولا ان كلام الجاحظ حُرّف على طريقة مضحكة . وتفصيل ذلك ان احدهم سأله : كيف خُلق القرآن ؟ فاجاب : خُلق القرآن كما خُلق الرجل، والمرأة، والبقرة وكل حيوان ذكراً كان او انثى . فحرّف بعض اعدائه هذا الجواب، وقالوا ان الجاحظ يعتقد «ان القرآن جسد يجوز ان يقلب مرةً رجلاً، ومرةً حيواناً» (١ ومن الغريب ان هذا الزعم لا يزال في اكثر الكتب الكلامية، حتى في تآليف المستشرقين

وعلى الجملة نرى ان الجاحظ كان يميل في فلسفته الى مذهب الفلاسفة الطبيعيين خاصّة . على انه لم يكن يهتم كثيراً بالتبويب والتنسيق والاستنتاج، بل كان يذكر آراءه عفواً في اثناء كتاباته مغشياً كل ذلك بستر شائق من الجملة الجذّابة والاسلوب المفكه . ولهذا كان نفوذه عظيماً في عصره، وتأثيره بليغاً في مفكري زمانه، حتى خافه العلماء السنيون اكثر من خوفهم غيره من الفلاسفة، واهتموا الاهتمام الشديد بمناوءته . ولم يكتفِ البعض بتزييف مبادئه على طريقة الكلاميين والفقهاء بل تجاوزوا الى هجوه، وتعييره بأصله، والزراية على كتبه . فقال البغدادي :

«واما كتبه المزخرفة فاصناف : منها كتاب في حيل اللصوص، وقد علّم بها الفَسَقَة

١) الشهرستاني : الملل والنحل : ص : ٥٣

وجوهَ السرقة . ومنها كتاب في غشّ الصناعات وقد افسد به على التجار سلعهم . ومنها كتابه في النواميس وهو ذريعة للمحتالين يحتلبون بها ودائع الناس واموالهم . . . ومنها كتاب في حيل المُكدين . . . ومعاني هذه الكتب لائقة به ، وبصفته ، وأسرته . ومنها كتاب طبائع الحيوان وقد سلخ فيه معاني كتاب الحيوان لارسطاطاليس ، وضمّ اليه ما ذكره المدائني من حكم العرب واشعارها في منافع الحيوان . ثم انه شحن الكتاب بمناظرة بين الكلب والديك ، والاشتغال بمثل هذه المناظرة يضيع الوقت بالغثّ . ومن افتخر بالجاحظ سلمنا اليه قول اهل السنة في الجاحظ كقول الشاعر فيه :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ، ما كان الّا دون قُبح الجاحظِ
رجلٌ يثوب عن الجحيم بنفسه وهو القذى في كل طرفٍ لاحظِ»(١

فهذا الحقد ، والتحامل العاطفي ، والتحقير ، الظاهر في كل سطر بل في كل كلمة ، يدلّ على تأثير الجاحظ ومنزلته في قلوب اخصامه (للبحث صلة)

١) البغدادي : الكتاب المذكور ، ص : ١٦٢ — ١٦٣